ذات النطاقِين

أخرج البخاري في كتاب «الأطعمة»، باب: «الخبز المُرَقَّقِ، الأكلِ على الخوان» هذا الحديث: حدثنا محمد، أخبرنا أبو معاوية، حدثنا هشام عن أبيه وعن وهب بن كيسان قال:

كانَ أهلُ الشامِ يُعيِّرون ابنَ الزُّبيرِ يقولونَ: يا ابنَ ذاتِ النِّطاقين.

فقالتْ له أسماءُ: يا بُنيَّ! إنَّهم يعيِّرونَكَ بالنِّطاقين، وهَلْ تدري ما كانَ النطاقان؟ إنَّما كانَ نطاقي شَقَقْتُهُ نِصْفينِ، فأَوكَيْتُ قِرْبَةَ رسولِ الله ﷺ بأحدِهِما وجَعَلْتُ في سُفْرَتِهِ آخَرَ.

قالَ: فكانَ أهلُ الشامِ إذا عيَّرُوهُ بالنِّطاقينِ يقولُ: إيهاً والإلٰهِ «تلكَ شكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُهَا».

لقد مرّ أصل هذا الحديث في باب «الهجرة إلى المدينة» ولكن هذا الجزء المهم ورد هنا مشيراً إلى هذه الميِّزة لأسماء، حتى صارت مفخرة لها ولبنيها إلى الأبد، وزاداً لها عند الحساب.

وفي زمن الفتنة تختلّ الموازين، وتتبدَّل المفاهيم والقيم، لا سيما عند جهلة الناس وغوغاء الأمة، الذين لا يعرفون الحقائق، ويردِّدون الأقوال والعبارات بدون فهم أو وعي، ويتابعون قادتهم على غير هدى.

وهذا الحديث يشير إلى صورة من صور الفتنة التي جعلت بعض الناس يضلُّون، ويركضون وراء المكاسب العاجلة حتى أضحوا يعدون المكارم مذمَّة

وعندما نهض عبد اللَّه بن الزبير بأعباء الخلافة في سنة ثلاث وستين للهجرة بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية دون أن يستخلف، وبايع الناس عبد اللَّه في الحجاز والعراق واليمن وخراسان، وكاد الأمر يتم له في بلاد الإسلام كلها، حتى قام عبد الملك بن مروان وأرسل الجيوش لمحاربة ابن الزبير، فدانت العراق لبني أميَّة مرة أخرى، ثم حُوصِرَ عبد اللَّه في مكَّة من قِبَلِ الحجاج حتى قُتِلَ بعدما أظهرَ من ضروبِ الشجاعةِ والبطولة، والتمسك بالحق ما جعله مثلاً يُقتدى. في هذا الموقف الذي يصطرع فيه الناس كان جُهَّالُهُم من جُنْدِ الشامِ الذين لا يبتغون غير رضاء وليِّ أمرهم، ولو كان ذلك في غضب الله سبحانه، كان هؤلاء يُعيِّرون عبد اللَّه بلقب أمه، وينادونه «يا ابنَ ذاتِ النطاقين»!!.

إنها الجهالة والغوغاء والفتنة، جعلت من أحسن مكرمة تنالها أسماء عيباً في نظر هؤلاء الحمقى.

وأسماء عَلَمٌ بارز بين النساء، وكان لقبها هذا وساماً لها في العالمين. لذلك ذكرت لابنها البطل ما كان من أمر النطاقين، وتمثل عبد اللَّه ببيت لأبي ذؤيب الهذليّ من عدة أبيات مشهورة وهي:

وعَيَّرَها الواشونَ أنِّي أُحِبُّها ... وتلكَ شَكاةٌ نازحٌ عنكَ عارُها
فإنْ أَعْتَذِرْ مِنْها فإنِّي مُكَذَّبٌ ... وإنْ تعتذرْ يُرْدَدْ عليكَ اعتذارُها
هلَ الدَّهْرُ إلاَّ ليلةٌ ونهارُها ... وإلاَّ طلوعُ الشمسِ ثمَّ غِمارُها

أبى القلبُ إلّا أمَّ عمرٍو فأصبحتْ   تُحرِّقُ ناري بالشكاةِ ونارُها

وهذه القصيدة تزيد على ثلاثين بيتاً، وكان ابن الزبير يكثر التمثُّل بالشّعر دلالة على سعة معرفته وكثرة علمه.

والحادثة تدلُّ على سفاهة الغوغاء الذين يدوسون القيم لنصرة الولي الغشوم الظالم الذي يبغي على الحق، ويظلم الناس في سبيل المطامع كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي وتابعوه.

كذّاب ثقيف ومبيرها

أخرج مسلم في كتاب «الفضائل»، باب: «ذكر كذّاب ثقيفٍ ومُبِيرها» الحديث الآتي:

حدثنا عقبة بن مكرم العَمِّيُّ، حدثنا يعقوبُ ـ يعني ابن إسحاق الحضرمي ـ أخبرنا الأسود بن شيبان عن أبي نوفل: رأيتُ عبد اللَّه بن الزبير على عَقَبة المدينة[1] قالَ: فجعلتْ قريشٌ تمرُّ عليه والناسُ، حتى مرَّ عليه عبد اللَّه بن عمر فوقفَ عليه فقالَ:

السلامُ عليكَ أبا خُبَيْبٍ[2] السلامُ عليكَ أبا خُبيبٍ، السلامُ عليك أبا خُبَيْبٍ، أمَا والله لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا، أمَا والله لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا، أمَا والله لقد كنتُ أنهاكَ عن هذا، أمَا والله إنْ كُنتُ ما علمتُ، صوّاماً قوّاماً وَصُولاً للرحمِ، أمَا والله لأُمَّةٌ أنتَ أشرُّها لأُمَّةُ خيرٍ.

ثمَّ نَفَذَ عبد اللَّه بنُ عمرَ فبلغَ الحجاجَ موقفَ عبد اللَّه وقوله، فأرسلَ إليه[3] فأُنْزِلَ عن جِذْعِهِ، فأُلْقِيَ في قُبُورِ اليهودِ، ثمَّ أَرْسَلَ

---

(١) عَقَبَةُ المدينة: هي عقبة بمكة.

(٢) أبا خبيب: كنية عبد اللَّه بن الزبير، وخبيب أكبر أولاده، ويكنى أيضاً بأبي بكر، وأبي بكير.

(٣) أي إلى عبد اللَّه بن الزبير وهو المصلوب.

إلى أُمِّهِ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ فأَبَتْ أنْ تأتيَهُ، فأعادَ عليها الرسولَ لَتأْتِينِّي أو لأَبْعَثَنّ إليكِ مَنْ يسحَبُكِ بقرونِكِ[١].

قال: فأبَتْ وقالتْ: والله لا آتيكَ حتى تبعثَ إليَّ مَنْ يسحَبُني بقُرُوني، قالَ: فقالَ: أرُونِي سِبْتَيَّ[٢]، فأخذَ نَعْليهِ ثمَّ انطَلَقَ يَتَوَذَّفُ[٣] حتَّى دَخَلَ عليها فقالَ: كيفَ رأيتِني صنعتُ بعدوِّ الله؟

قالتْ: رأيتُكَ أفسدتْ عليه دنياهُ، وأفسَدَ عليكَ آخرتَكَ. بَلَغَني أنَّك تقولُ لَهُ: يا ابنَ ذاتِ النِّطاقينِ[٤]، أنا والله ذاتُ النِّطاقينِ، أمَّا أحدُهما فكنتُ أرْفَعُ بهِ طعامَ رسولِ الله ﷺ وطعامَ أبي بكرٍ مِنَ الدَّوابِ، وأمَّا الآخرُ فِنطاقُ المرأةِ التي لا تَسْتَغني عنه، أمَّا إنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيفٍ كَذَّاباً ومُبِيراً، فأمَّا الكذَّابُ[٥] فرأيناهُ، وأمَّا المبيرُ[٦] فلا أَخالُكَ إلاَّ إيَّاهُ.

قالَ: فقامَ عنها ولم يُراجِعْها.

وأخرج هذا الحديث البيهقي في سننه في باب «ما اطَّلع عليه من الغيوب وما يكون». وأخرج الإمام أحمد حديثاً قريباً منه فقال:

---

(١) أي بضفائر شعرك.

(٢) السِّبْت: النعل التي لا شعر عليها.

(٣) يَتوذَّف: يُسرع أو يتبختر.

(٤) النطاقين: المفرد نطاق وهو الذي تشده المرأة في وسطها.

(٥) الكذاب: هو المختار بن أبي عبيد اللّه الثقفي، كان شديد الكذب، ومن أقبحه: ادعى أن جبريل ﷺ يأتيه.

(٦) والمُبِير: المُهْلِكُ، واتفق العلماء على أن المراد بالكذاب هنا المختار بن أبي عبيد اللّه الثقفي، وبالمُبِير الحجاج بن يوسف والله أعلم، والمبير مأخوذ من أبار بمعنى هلك، والبؤر الهلاك.

حدثنا إسحاق بن يوسف قال: حدثنا عوفٌ عن أبي الصّدِّيق النَّاجي أنَّ الحجاجَ بنَ يوسف دخَلَ على أسماء بنت أبي بكر بعدما قُتِلَ ابنُها عبدُ اللّه بنُ الزبيرِ فقالَ:

إنَّ ابنَكِ أَلْحَدَ في هذا البيتِ، وإنَّ الله عزَّ وجلَّ أذاقَهُ مِنْ عذابٍ أليمٍ، وفعلَ به ما فعلَ.

فقالتْ: كَذَبْتَ، كانَ بَرًّا بالوالدينِ، صَوّاماً، قَوّاماً، والله لَقَدْ أَخْبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّه سيخرُجُ من ثقيفٍ كذَّابانِ، الآخرُ منهُما شرٌّ من الأوَّلِ وهوَ مُبيرٌ.

وكذلك أخرج من طريق سعيد بن سليمان سعدويه عن عباد بن العوام عن هارون عنترة عن أبيه أنه لما قتل الحجاج ابن الزبير وصلبه منكوساً. فبينا هو على المنبر إذ جاءت أسماء ومعها أَمَةٌ تقودُها ـ وقد ذهبَ بصرُها ـ فقالت:
أينَ أميرُكم؟... فذكر القصَّة...

فقالتْ: كَذَبْتَ، ولكنِّي أحدِّثُكَ حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ يقول:

«**يخرجُ من ثقيفٍ كذَّابانِ، الآخَرُ مِنهُما أشرُّ من الأولِ وهو مُبيرٌ**».

وأخرج الطبراني عن يعلى بن حرملة قال:

دخَلْتُ مكة بعدما قُتِلَ ابنُ الزبير، فجاءتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ عجوزةً كبيرةً طويلةً، مكفوفةَ البصرِ، فقالتْ للحجاج: «أَمَا آنَ لهذا الراكبِ أنْ يَنْزِلَ؟».

قال الطبراني وفيه يحيى بن يعلى وهو ضعيف.

وأخرج الترمذي في جامعه: ويقالُ: الكذابُ: المختارُ، والمبيرُ: الحجاجُ.

ثم ذكر بسنده إلى هشام حسان قال: أَحْصَوْا ما قَتَلَ صَبْراً فبلغَ مائةً وعشرين ألفاً.

قلتُ: وتكفي هذه الأخبار لتضع الحجاج في منزلة الطغاة الآثمين، الذين سخَّروا أنفسهم لخدمة الأمراء والحكَّام فلم يرعوا في سبيل ذلك حقَّ أحد، ولم يخشوا غضب الله عزَّ وجلَّ، ولم يصونوا دماء المسلمين وحرماتهم، فأهرقوا دماء الناس وظلموا الأمَّة، وعاثوا في الأرضِ فساداً باسم القضاء على الثورات، ولم ينالوا غير غضب الله ولعنة الناس.

مكرمةٌ للزبير

أخرج الإمام أحمد فقالَ: حدثنا معمر، حدثنا عبد اللَّه ـ يعني ابن المبارك ـ قالَ: أخبرنا ابن لهيعة عن خالد يزيد قال: سمعتُ عبد اللَّه مولى أسماء يحدِّث أنَّه سمع أسماء بنت أبي بكر تقولُ:

«عندي للزبيرِ ساعدان من ديباجٍ كانَ النبيُّ ﷺ أعطاهُما إيَّاهُ يقاتِلُ فيهما».

وقالت أسماء: عندي للزبير ساعدانِ من رماحٍ كانَ النبيُّ ﷺ أعطاهُما إيَّاهُ يقاتِلُ فيهما. («تهذيب تاريخ دمشق الكبير» ٥/ ٣٦٢).

هكذا تحفظ أسماء هذه المآثر لزوجها الزبير ـ رضي الله عنهما ـ لا سيما وأنَّ هذه المآثر من رسول الله ﷺ وهي تدل على مكانة الزبير، ووفاء أسماء وصورة البيت المسلم الذي يقوم على الصّدق والوفاء.

غضّ البصر

أخرج الإمام أحمد عدة أحاديث في غضّ البصر عن الصورة وهي:

حدثنا عبد الرزاق قالَ: أخبرنا مُعمّر قالَ: أخبرني عبد اللَّه بنُ مسلم أخو الزهري عن مولاةٍ لأسماء بنتِ أبي بكرٍ عن أسماء قالتْ:

سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**مَنْ كانَ منكُنَّ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ فلا تَرْفَعْ رأسَها حتى نَرْفَعَ رُؤُوسَنا**». كراهَةَ أن يَرَيْنَ عوراتِ الرِّجالِ لصِغَرِ أُزُرِهِم[1] وكانُوا إذْ ذاكَ يأْتزِرُونَ بهذِهِ النَّمِرَةِ[2].

* * *

وحدثنا إبراهيمُ بنُ خالدٍ قالَ: حدثنا روحٌ عن مُعمّر عن الزُّهري عن بعضهم عن مولاةٍ لأسماء عن أسماء أنَّها قالت:

كان المسلمون ذوي حاجةٍ، يَأْتَزِرُون بهذه النَّمِرَة، فكانتْ إنَّما تبلغُ أنصافَ سُوقِهم أو نحوَ ذلكَ، فسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

«**مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليومِ الآخرِ**» ـ يعني النساء ـ «**فلا تَرْفَعْ**

---

(١) الإزار: ما يلبسه الرجل ليستر عورته.

(٢) النَّمِرَة: بردة من صوف تلبسها الأعراب، وتلبسها الإماء، وسميت بذلك لأنها تشبه النمر لما فيها من السواد والبياض («غريب الحديث» لابن قتيبة).

رأسَها حتى نَرْفَعَ رُؤُسَنا» كراهيةَ أنْ تَنْظُرَ إلى عوراتِ الرجالِ من صِغَرِ أُزُرِهم.

وأخرجه أيضاً من طريق عبد الأعلى عن مُعمَّر بن عبد اللَّه بن مسلم بن شهاب أخي الزهري عن مولى لأسماء.

وأخرج عن عفان عن وهيب قال: حدثني النعمان بن راشد عن ابن أخي عن مولى لأسماء بنت أبي بكر عن أسماء قالت:

قال رسول الله ﷺ: «**يا معشرَ النساء، مَنْ كان يؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ فلا تَرفَعْ رأسَها حتى يرفَعَ الرجالُ رؤوسَهُم**».

قالت: وذلك أن أُزُرَهم كانت قصيرة، مخافةَ أن تنكشف عوراتُهم إذا سجدوا. وأخرجه أبو داود أيضاً في «الصلاة».

وفي رواية أخرى: «**يا معشرَ النساء، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ترفع رأسها حتى يرفع الإمام رأسه**» من ضيق ثياب الرجال.

وأخرج البيهقي من طريق أبي علي الروذباري عن محمد بن بكر عن أبي داود عن محمد بن المتوكل العسقلاني عن عبد الرزاق عن معمر عن عبد اللَّه بن مسلم أخي الزهري عن مولى لأسماء عن أسماء... بمثل الحديث السابق في كتاب «الصلاة»، باب: «ظهور العورة من أسفل الإزار عند السجود».

* * *

هذه صورة المجتمع الإسلامي، مجتمع تحكمه شريعة الله، ويضبطه الإيمان والتقوى.

الرجال يعوزهم المال ليلبسوا إزاراً طويلاً، ويعوزهم المال ليأكلوا مع أسرهم، ولكن ذلك لا يثنيهم عن حمل دعوة الله، ولا ينقص من إيمانهم وحبهم لله ولرسوله ﷺ. كان المجتمع كتلة واحدة متراصّة، يواسي بعضهم بعضاً، ويؤازر المؤمن أخاه المؤمن.

هؤلاء الأطهار الأخيار، من السابقين الأولين كانت أُزُرهم قصيرة، لأن أموالهم أُنفقت في سبيل الله، ولأن الجاهلية أرادت أن تضرب عليهم الحصار، وتضيِّق عليهم سبل العيش ظناً منها أن حاجة المعدة والجسد وأمور الدنيا، سوف تقهر هذه العصابة المؤمنة. وخاب الكفر وخاب الطغاة المشركون، لأن عصبة الإيمان كانت غير آبهة بهذه الدنيا لأنها تبتغي مرضاة الله وتسعى لحياة الآخرة.

لم يحرصوا على الدنيا، فجاءتهم الدنيا صاغرة ذليلة، وصارت كنوز كسرى وقيصر بين أيديهم فلم يفتنهم ذلك بل ازدادوا شكراً لله، ورسوخاً في الإيمان.

هكذا كان حَمَلة الإسلام ودُعاته وبُناتُه من الرجال.

وكذلك النساء كنَّ يقفن مع الرجال يحمين ظهورهم، ويمدُّونهم بالأبناء المؤمنين. كانت البيوت مدارس إيمان، ومصانع رجال، ومعاهد للتربية الإسلامية، يقوم عليها النساء، فيخرجن جيلاً مؤمناً كأمثال ابن الزبير وابن عمر رضي الله عنهم. هذا المجتمع لا تضبطه السلطات والجبروت، ولا تتحكم به أجهزة الأمن والمخابرات، ولا يخيف أبناءه الإرهاب والعنف، إنما تحكمه شريعة الله ويضبطه الإيمان، وتدفعه التقوى.

كلمة واحدة من رب العالمين في كتابه الكريم أو على لسان رسوله الأمين تكفي لصنع الكثير. لذلك كان خطابهم بالإيمان يلزمهم أي سلوك ويمنعهم عن أي شيء، وهكذا يكون مجتمع الإسلام.

وهذه صورة التربية الإسلامية التي تغرس في نفوس المسلمين الإيمان الصّادق اليقيني بالله عزّ وجلّ وما جاء من عنده، وتغرس في نفوسهم اليقين بالحساب والآخرة، واليقين بأن ما عند الله خير وأبقى، وأن معيار الحق والصواب والخير والنفع هو مرضاة الله عزّ وجلّ، والتزام شرعه، ولهذا تبقى الآخرة حاضرة في نفس المسلم مع كل تصرف وعمل.

أما التربية الحديثة التي استطاع الغربيون أن يغزوا بها العالم الإسلامي، ويفتنوا المسلمين بها عن دينهم باسم العلم والتطور، هذه التربية تركز اهتمام الإنسان بالدنيا والمادة، والنفعية، وحيازة أكبر قدر من المال أو الشهرة، أو المكانة، أو... في الدنيا وتغيب الآخرة، والحساب، والعقاب والثواب، ويصبح الإنسان آلة لا حسّ فيها ولا رحمة.

القوانين المصنوعة بيد الأبالسة من البشر هي قوانينهم، والنظام والقيم التي يضعونها هي القيم التي تفرض على الناس، حتى غدت الدعارة والرذيلة والجريمة فضائل، وحقوقاً مقدسة في ظل التربية الغربية التي افتتن بها كثير من الناس.